

فهم الذات من خلال السرد قراءة في إشكالية الذات الحقيقية المرجعية وسردتها
Self-Understanding Through Narrative: An Exploration of the Issue of Authentic Self-Reference and its Narration.

شعيب مرواني*

جامعة الشهيد الشيخ العربي التبسي - تبسة.

مخبر الدراسات الإنسانية والأدبية

chouaib.merouani@univ-tebessa.dz

تاريخ القبول: ٢٠٢٤/٠٥/٠٣ النشر: ٢٠٢٤/٠٧/١٨

تاريخ الاستلام: ٢٠٢٤/٠٢/١٠

ملخص:

نريد في هذه الورقة بيان العلاقة القائمة بين الذات المرجعية (الذات الحقيقية الواقعية)، وبين الذات التي تُسَرَدُ (تحول الذات الحقيقية إلى هوية سردية)، وتحديد الرابط بينهما، ومساءلة مقولة التطابق التي تستند إلى ميثاق القراءة المتفق عليه (المؤلف = السارد = الشخصية الرئيسية).

وقد استُعيِنَ بنماذج سردية تقع في حدود الإطار المشتغل عليه (السرد الذاتي مع التحفظ على المصطلح)، لتعميق الرؤية وتقديم أمثلة حية تدعم ما نذهب إليه في طرحنا هذا.

الكلمات المفتاحية: الذات؛ سرْدنة الذات؛ الهوية؛ السرد؛ الفهم.

Abstract :

This paper aims to explain the relationship between the referential self (the true realistic self) and the narrated self and establish the connection between them and question the notion of alignment based on the agreed-upon reading pact (author = narrator = main character).

We have utilized narrative models within the scope of our study (self-narrative with reservation on terminology) to deepen our perspective and provide relevant examples to support our argument.

KeyWords: The self; self-narration; identity; narrative; Understanding.

*المؤلف المرسل: شعيب مرواني

المقدمة:

نقدم في هذه الورقة تصورًا يتعلق بفهم الذات من خلال السرد، ويُعدُّ هذا التصوُّر عتبة أولى تحتاج إلى استكمال يتطلب استطرادًا غير متاح في هذا المقام، لذا، نكتفي بعرض التصور المبدئي، مع السعي لاستكماله في فرص أخرى، ولتوضيح ما نسعى إليه هنا، وتكثيفه نوعًا من التمهيد نساعد به القارئ دخول الورقة، نُشير إلى أننا ننتقل من فكرة أساسية مفادها أن الذات داخل السرد (هوية سرديّة، شخصية حاملة لذات المؤلف)، التي يصطنعها المؤلف عن ذاته الحقيقية المرجعية (الأنا) أو عن ذات حقيقية مرجعية أخرى (الأخرى)، لا تتطابق مع الذات الحقيقية المرجعية المنتجة للعمل في حالة تسريد الذات كما في السيرة الذاتية واليوميات والمذكرات، ولا تتطابق مع الذات الغيرية، موضوع السرد في سرود السيرة الغيرية والقصص الشعبية، وإن كانت تحمل اسم المؤلف وصفاته، وتعيش في حبكة مطابقة لخط حياته، (تطابق ذاته) في حالة السرد الشخصية (سيرة ذاتية، مذكرات، يوميات)، وإن كانت تطابق الشخصية الغيرية في حالة السرد الغيرية (سيرة غيرية، رواية سيرية)، إذ تُشكل هذه الذات السردية التي يُرمز بها المؤلف نفسه لغويًا وسرديًا، أو التي يُرمز بها الذات الغيرية، نوعًا من الهوية أو بالأحرى مُحدّدًا من محددات الهوية التي نحاول من خلالها فهم الذات.

ودون إسهاب، يُختصر الأمر بالقول: إن فكرة الورقة تضع قضية التطابق والميثاق القرائي المتواضع عليها موضع شكّ، وتنسف إمكانية حدوث التطابق بين الذات الحقيقية المرجعية للمؤلف، وبين ذاته التي يُسرّدُها، لتكون حاملة الذات الحقيقية في عالم اللغة والسرد، حيث تكون هذه الذات اللغوية (هوية لغوية) وعاءً لا يمكن له أن يستوعب كامل إمكانات الذات الحقيقية التي تحتلقها، وعلى هذا الأساس، تكون قضية التطابق حقيقةً مستحيلة.

إن علاقة الذات الحقيقية المرجعية^(١)، بالذات المُسرّدة^(٢)، تشبه علاقة الذات الحقيقية المرجعية بصورتها الفوتوغرافية، فالصورة الفوتوغرافية تشكل نوعًا من محددات الهوية التي تساعد على فهم الذات دون أن تكون هي الذات عينها، إنها منفصلة عنها، وفهمنا للذات الحقيقية في ضوءها يقوم على المقارنة والقياس والتأمل، لا على المطابقة، وقياسًا على هذا، فإننا نتعامل مع الذات السردية التي تدعي المطابقة مع ذات المؤلف الحقيقية كما في السيرة الذاتية والمذكرات، لذلك، ذهبنا إلى أن ميثاق التطابق الشهير (المؤلف = السارد = الشخصية الرئيسية) (لوجون، ١٩٩٤)، ميثاق مغلوّط إذا ما تناولناه خارج حدود التواضع، وخارج نظام الفهم المشترك المتفق عليه، تجاوزًا لتسهيل عملية فهم الذات، من خلال اعتبار الذات المُسرّدة^(٣) عن ذات المؤلف الحقيقية المرجعية مطابقة لها.

I. في السرد الذاتي:

قبل الانطلاق في قضية فهم الذات سرديًا ومساءلة مقولة التطابق، ونقد ميثاق القراءة المتواضع عليه (مؤلف = سارد = شخصية رئيسية)، وجب علينا أن نفهم أولاً مصطلح "السرد الذاتي"، إذ إنه مصطلح يشوبه نوع من اللبس والغموض، بل والمغالطة أيضًا، فهو، كما يُفهم، وكما يُوظفُ ويتعامل معه وبه في الأوساط الأكاديمية، هو السرد

الذي يجعل من الذات المؤلفة للعمل (ذات الكاتب) موضوعاً لسردها عن نفسها، إنه يشير إلى السرد الذي يعيد إنتاج الذات الحقيقية المرجعية للمؤلف داخل النص مع المحافظة على مرجعيتها وإقرار التطابق، كما نجد في السيرة الذاتية، والمذكرات، واليوميات، حيث لا يمكن أن يتشكل العمل أو تكتمل العملية السردية في هذه الأنواع، ما لم يتخذ المؤلف من ذاته موضوعاً للسرد، وهذا هو المعنى المتداول للمصطلح، وهو معنى صار مسلماً به ومتواضعاً عليه.

أما مصطلح السرد الذاتي كما يُفهم ويُتداول، فإنه يُساق إلى أنواع مخصوصة من السرود مثل السيرة الذاتية، المذكرات، اليوميات...، وهنا تكمن المغالطة، فتركيب المصطلح (السرد- الذاتي) لا يتوافق مع القصد الذي يُراد منه أو له: (السرد الذي تكتبه الذات الحقيقية المرجعية مُتَّخِذَةً من نفسها موضوعاً للسرد)، إذ إنه في معناه الحقيقي الذي يقتضيه التركيب (سرد- ذاتي)، يحيل إلى كل سرد تنتجه الذات بغض النظر عن موضوعه استناداً إلى أن كل سرد تنتجه الذات هو سرد ذاتي حتى لو كان قصة خيالية لا تتخذ من ذات مؤلفها موضوعاً للسرد، فالرواية سرد ذاتي، والقصة الخيالية سرد ذاتي، والورقة النقدية التي أكتبها سرد ذاتي...، إن نسبة (ذاتي) هنا تتعلق بالمنتج وعملية الإنتاج، لا بنوع الناتج، في حين أن عملية التواضع على هذا المصطلح أزاحته عمّا يجب أن يفهم به لتطلقه في غير موضعه. إن المعنى الذي يُقصد من مصطلح (السرد الذاتي)، أو المعنى الذي يُرادُ تمثله من خلاله، يتعلق بالسرود التي تكتبها الذات مُتَّخِذَةً من نفسها موضوعاً لسردها ومادة له، لكن هذا المصطلح المضروب (السرد الذاتي) لا يخدم هذا المعنى، فالسيرة الذاتية، والمذكرات، واليوميات، والروايات السير ذاتية...، هي تسريعات للذات المؤلفة بواسطتها نفسها، وهي أنواع ترد تحت هذا المصطلح المغلوط الذي يُفهم في حدود هذه الأنواع، وتُفهم هذه الأنواع في حدوده.

إدّاء، المشكلة تكمن في موافقة المصطلح المراد منه، فالسرد الذاتي مصطلح لا يتطابق من حيث تركيبه وما يحيل إليه مع مفهوم "سردنة الذات لنفسها، أو سرد الذات عن نفسها" الذي تمثله الأنواع: السيرة الذاتية، المذكرات، اليوميات، بالتالي، فإن الاصطلاح الصحيح الذي يتوافق مع المفهوم المجسّد من خلال هذه الأنواع هو "تسريد الذات لذاتها"، إذا ما تحدثنا عن السرد، أي أننا نطلق على تلك السرود التي تكون فيها ذات المؤلف مُنتِجَةً للسرد وموضوعاً له آنًا واحدًا "سُرودُ الذات المُسَرَّدَنَة لذاتها"، وقد قدمنا مفهومًا لهذا المصطلح على أنه سرد تبنيه الذات عن ذاتها، ويسعى فيه المؤلف^(٤) لجعل ذاته الحقيقية المرجعية، ساردة وموضوعاً للعملية السردية، وإحالتها بؤرة العمل السردية، بإعادة إنتاج هذه الذات المرجعية شكلاً لغوياً (هوية سردية)، واعتمادها شخصية مُؤلَّدة للأحداث أو تدور حولها الأحداث. (شعيب رشيد، ٢٠٢٣، صفحة ١٨٢)، ونفهم هذا المصطلح من خلال السير الذاتية، اليوميات، المذكرات، أدب الرحلة، الرواية السير ذاتية، والسير الذاتية الروائية، والتخييل الذاتي -مع التحفظ على مصطلح التخييل الذاتي-.

ففي كل هذه الأنواع السردية نجد أن الذات المؤلفة أو المُنتِجَة للسرد -وهي ذات حقيقية مرجعية نفهمها ضمن حدود إدراكنا الواقع-، تتطابق أو توحي بالتطابق مع الذات موضوع السرد^(٥)، ما يؤسس لميثاق قراءة يجعل

من المتلقي يُسلَّم كلياً أو نسبياً بتطابق الذوات، أو تشابهها، مع احتمالية تصديق القارئ للوقائع الواردة في هذه الأعمال - كلياً أو نسبياً - معتبراً إياها أحداثاً حقيقية مرَّت بها الذات داخل السرد المطابقة للذات المرجعية الحقيقية خارجه.

فمثلاً "إحسان عباس" الذات الحقيقية المرجعية في أرض الواقع، تتمثله ذاتاً لغوية (هوية سردية) في سيرته الذاتية "غربة الراعي"، ونطابق بينه وبين الذات داخل النص (عباس، ٢٠٠٦) وذات "ليف تولسوي **Lev Tolstoy** في يومياته (تولسوي، ٢٠٢٠)، هي تجسيد لغوي وتصوير سردي لذاته المرجعية، ويستعين القارئ بالتطابق في فهمه، و"واسيني الأعرج" ذاتاً لغوية في "سيرة المنتهى" نفهمه على أنه "واسيني الأعرج" الذات الحقيقية المرجعية (وذلك من خلال عقد ميثاق المطابقة كإجراء قبلي متفق عليه داخل المؤسسة النقدية والقرائية بصفة عامة) (الأعرج، سيرة المنتهى عشتها كما اشتهتني، ٢٠١٤)، و"ياسين" في "شرفات بحر الشمال" (الأعرج، شرفات بحر الشمال، د.ت) هو إحدى هويات "الأعرج" وواحد من وجوه السردية (شعيب رشيد، ٢٠٢٣)، التي نكتشف تطابقها الضمني من خلال قراءتنا للعمل، وإجراء مقارنات بين الذات المرجعية والشخصية الورقية.

وفي اتجاه عكسي فإننا نبنى تصورا عن ذات "ابن بطوطة" الرحالة الشهير من خلال كتابه "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" (بطوطة، ٢٠٠٦)، الذي يعد سجلا لرحلاته ومغامراته، فالتصور الذي نبنيه عن ابن بطوطة باعتباره رحالة ومغامراً أسسنا له من خلال التطابق الذي نفترضه استناداً إلى سرده عن ذاته واتخاذها موضوعاً لسرده.

على النقيض، فإنه لا يمكننا القول جزماً ولا تضميناً بأن "سنتياغو **Santiago**" الشخصية الرئيسية في رواية "الخمائي" لـ"بوالو كويلو **Paulo Coelho**" (كويلو، ٢٠٠٨) هي ذات لغوية سردية تتطابق أو تتقارب من أو مع الذات الحقيقية المُنتجة للسرد (ذات المؤلف بوالو كويلو **Paulo Coelho**)، ولا يمكننا القول بأن "ونستون **Winston**" من رواية "١٩٨٤" (أورويل، ١٩٨٤، ٢٠٠٦) هو الشكل اللغوي (الذات داخل السرد أو الهوية السردية)، لذات مؤلفها الحقيقي "جورج أورويل **George Orwell**"، حيث تستحيل المطابقة هنا، لأن المؤلف لا يُسرَدُ ذاته وإنما يتجه في اتجاه سردي آخر يبتعد عن قضية اتخاذ ذاته الحقيقية موضوعاً للسرد (كما في السيرة الذاتية واليوميات، أو الروايات السير ذاتية)، ويسير في نظام ترميزي جديد يختلف عن نظام ترميز الذات لغوياً وإنتاجها حدّاً من حدود الهوية التي نفهم بها الذات الحقيقية^(٦).

إن هذا العرض المبسط يجعلنا، أولاً: نصحح مصطلح "السرد الذاتي" ونستبدله بمصطلح أدق، يعبر بشكل صحيحة عن جملة السرود التي تكون فيها الذات الموضوع مطابقة أو مقارنة للذات المرجع، وثانياً: يجعلنا نُضَيِّقُ دائرة الاشتغال في الورقة، إذ إننا سنقتصر على تلك السرود التي تتخذ من ذات مؤلفيها موضوعاً لها، وقد سبق وأوردنا أمثلة ونماذج عنها، ومن خلال هذه السرود سنحاول معرفة أهمية السرد وسيطا لفهم الذات.

II. الذات والسرد مقارنة في نماذج سردية:

بالعودة إلى فهم الذات من خلال السرد، فإننا سنتخذ نموذجين: أحدهما نموذج عن الذات التي لا تُسَرَدُ ذاتها^(٧) لكنها حاضرة في العمل، حيث يحمل السرد في هذا الضرب آثارًا من ذات المؤلف، نحسها دون أن نثبتها، ويُسَنَدُ المؤلف عملية رواية الأحداث في سرده إلى سارد خفي لا نستشعره، أو نلتفت إليه، لأننا نكون منهمكين بالأحداث التي يسردها والشخصيات التي يعرض لها.

أما النموذج الثاني فهو عن ذات تُسَرَدُ ذاتها، أي تتخذ من ذاتها موضوعًا للسرد، لتكون أحداث السرد، وحبكتها، ووقائعها، أو جزء معتبر منه على الأقل يتمحور حول الذات خارج نصية المطابقة للذات داخل نصية، أي أن السرد يكون من طرف المؤلف عن ذات المؤلف، والذات التي نقرأها في هذا العمل هي ذات المؤلف الحقيقي^(٨).

نأخذ نموذج العينة الأولى من أعمال "السعيد بوطاجين" وسنختار إحدى قصصه، ولا نهمنا فكرة العمل ولا تشكيله السرد، لأن بحثنا يتركز على الذات وتجليها في السرد، وكيف يستعان بالسرد لترجمة الذات، أما نموذج العينة الثانية فنأخذها من أعمال الأعرج التي توفر التطابق.

عند "السعيد بوطاجين"، لا نجد التطابق، ولا نجد تعبيرًا صريحًا عن الذات في أعماله؛ لكننا نجد حضور ذاته في النص من خلال الراوي العليم، ومن خلال نبرة التهكم التي تحكم نسيج قصصه، تهكم يتعلق بذاته الحقيقية في أرض الواقع، هذه الوسيلة التي يعتمد عليها "بوطاجين" في صياغة ذاته: لقد أولى العلماء في السنوات الأخيرة اهتمامًا متزايدًا بالوسائل المتنوعة التي يستخدمها الأفراد بغية التعبير وصياغة هوياتهم، كالفكاهة واللبس والأسلوب الشخصي، وتأثير المكتب (ديكور المكتب)، للإشارة إلى هوياتهم أمام الآخرين (Herminia, ٢٠١٠، Roxana)، إن ذات "بوطاجين" تتجلى سرديا، وتتخذ لنفسها هوية من خلال الراوي العليم المتهمك من السلطة، المنتقد للأوضاع، وهذه الهوية التي يدرك بها المتلقي ذات المؤلف من خلال السرد ويفهمه بها، وهكذا يُجَسَّدُ المؤلف ذاته ويعبر عنها في حدود السرد، بعد أن فَهَمَ نفسه ساردا، قاصا، مثقفا، مهمته انتقاد السلطة، انتقاد المجتمع، والتهكم من مظاهر الاستبداد والبيروقراطية، بواسطة هذا الراوي، إن التهكم والفكاهة هي وسيلته لصياغة ذاته سرديا من خلال راوٍ عليم يشكل هوية وانعكاسا له داخل النص.

ف"بوطاجين" لا يُسَرَدُ ذاته شخصية فاعلة في السرد مطابقة له، ولكنه يتخذ دور السارد في قصصه دون أن يحيل إلى ذاته الحقيقية صراحة، فنحن نشعر بوجوده الخفي دون أن نتمثله بشكل واضح في السرد، عكس ما نجده في سيرة المنتهى لـ "الأعرج" مثلا، التي موضوعها ذات المؤلف وحياته، وغايتها التعريف بذات شخص نفهمه أنطولوجيا على أنه إنسان مثقف وروائي، وهو ما يخالف الغاية التي ينشدها "بوطاجين" من سرد القصص، التي يقصد منها تقويض السلطة بواسطة ذات تُفْهَمُ نفسها على أنها من خلال سَرَدَتِ نفسها ستقدم نموذجًا مضادا لمركزية ما.

لا شك في أن قصص "السعيد بوطاجين" ولأخذ قصة "سيمفونية الفناء الوشيك" مثالا (بوطاجين، ٢٠١٨، الصفحات ٠٥ - ١٣)، تخلو من فكرة تسريد الذات ظاهريا، لكن الذات الساردة فيها (الراوي العليم) هي لا محالة ذات "بوطاجين" كما نتصوره في الواقع الحقيقي: "أستاذ جامعي"، و"قاص"، له مواقفه المعارضة لمركزية السلطة، وفئة أشباه المثقفين، وله نمط سرد ساخر يتخذ من هذه المواضيع مادة لقصصه، هذه هي الهوية التي نستنبطها من السرد، ونفهم بها ذات "بوطاجين" قاصا ومثقفا، إننا لا نجد يُسَرِّدُ ذاته كما هو الحال مع "الأعرج" على ضربين: ذات حقيقية تنتقل لتكون ذات ساردة داخل النص، وشخصية رئيسية في الوقت نفسه، ومثالها "سيرة المنتهى" (الأعرج، سيرة المنتهى عشتها كما اشتيتي، ٢٠١٤) القائمة على التطابق الكلي، أو ذات غير مطابقة تماما، كما هو الحال في عمل شرفات بحر الشمال (الأعرج، شرفات بحر الشمال، د.ت) وذاكرة الماء (الأعرج، ذاكرة الماء محنة الجنون العاري، ٢٠٠٨) القائمة على التطابق الضمني أو التطابق التشابحي.

إن الذات الساردة عند "السعيد بوطاجين"^(٩) تحضر لتسرد وتحيل على موضوعات أخرى، فنحن لا ننتبه إليها لأن تركيزنا مُنصَّب على شخصية الزعيم، الوزراء، الرعية، الذباب، والحمار...، في حين إن ذاته مستترة تربط بين كل هذا بواسطة السرد، فهو لا يُسَرِّدُ ذاته، ولكن ذاته تلتحم مع السرد، غير أنه لو توقفنا قليلا وابتعدنا عن الأحداث والشخصيات التي تعالجها القصة، ونظرنا ما وراءها لانتبهنا للذات الساردة ولاستطعنا تحديدها على أنها ذات "بوطاجين" عينه، لأنه يظهر لنا في السرد من خلال الراوي العليم (ضمير الغائب "هو").

بالتالي فإن هذه الذات الساردة في القصة هي حتما ذات "بوطاجين"، لكنها لا تتطابق معه إذ إنها تؤدي دورها راويا يجسد نزعات الذات الحقيقية المعارضة لبعض مظاهر السلطة، والمجتمع، لكنها لا تقدم لنا معرفة حقيقية وفهما كاملا عن ذات "السعيد بوطاجين" الحقيقي، إنها تقدم لنا أحد الأوجه فقط، وإننا نكبد في تحصيله إذ إن موضوع السرد ليس ذات المؤلف، ولكن السرد يتعلق بموضوع خارجي وهو على هذا حامل لشيء من ذات المؤلف ويعتبر محمدا من محددات هويته (قاص، سارد، مثقف، ومعارض)، والمطابقة التي نقوم بها نحن (ذات المؤلف = الذات الساردة في هذه القصة)، هي مطابقة كما أشرنا من أجل الفهم لا أكثر، لأن الذات الساردة في حقيقتها، ذات منفصلة عن الذات الحقيقية وإن كانت تحيل إليها، إنها معادل يختلقه المؤلف لينوب عنه ويستحيل أن يتطابق معه.

إن الأمر أشبه بقراءتنا "مزرعة الحيوانات" (أورويل، مزرعة الحيوان، ٢٠١٤)، حيث لا نجد "جورج أورويل George Orwell" داخل السرد، لكن بعد الانتهاء من قراءة العمل، نُكَوِّنُ تصورا عنه، وعن توجهاته المعارضة للشيوعية على الأقل، ما نريد قوله أنه حتى تلك السرد التي لا تُسَرِّدُ ذوات مؤلفيها (كنوع من الهوية المحيلة إلى ذات المؤلف المرجعية الحقيقية)، تُشكِّلُ هوية خاصة عن ذات مؤلفها، وإن كان إدراكها والتعامل معها صعبا مقارنة بالسرد الأولى، إلا أنها تزودنا ولو بالنزر القليل من المعرفة المتعلقة بالذات التي أنتجتها، دون أن تكون هذه الذات موضوعا لها.

لو انتقلنا إلى نموذج آخر، وهو السرد الذي تكون فيه ذات المؤلف موضوعاً له، فإننا سنأخذ "واسيني الأعرج" مثلاً، ذلك أن كثيراً من كتاباته تندرج في خانة أعمال تسريد الذات لذاتها، وغاية هذا التسريد هو بناء هوية للذات الحقيقية، يمكن من خلالها تلقي هذه الذات ومقاربتها فهمها كما هي في الواقع، أي إنها عرض سردي لذات المؤلف وحياته الشخصية، وعكس "السعيد بوطاجين" الذي يشق علينا معرفته من قصصه لأنها لا تُسرَدُ ذاته صراحة، فإننا في أعمال "الأعرج" نستطيع تكوين تصور عنه من خلال الهوية التي نلتقطها من السرد: مثقف، روائي فرنكوفوني، مر بصعوبات عديدة ومعاناة مريرة ليصل إلى ما هو عليه، كما نجد في ذاكرة الماء، وفي شرفات بحر الشمال، وفي سيرة المنتهى.

وبما أننا لا نسعى لاستقراء الهوية الناجمة عن تسريد الذات، ولا البحث عن دورها في بناء السرد، كما لا نسعى إلى بناء تصور مطابق للذات المرجعية في ذهن المتلقي، بقدر ما نسعى لضرب مقولة التطابق، على رغم ما تقدمه هذه المقولة من تسهيلات لإدراك الهويات السردية، ومقارنتها بالهويات المرجعية والوصول إلى نوع من الفهم المتعلق بالذات، فإننا لن نتوقف عند مدى التطابق أو التنافر بين الذات الحقيقية والذات السردية هنا، فهذا أمر يسير يسهل التعامل معه من خلال الميثاق المتواضع عليه، ولكننا سننطلق من سؤال اصطنعناه يقول: هل يوجد تطابق في التطابق؟ بما معناه هل الذات المُسرَدَةُ^(١٠) هي نفسها الذات الحقيقية التي تضطلع بفعل السرد^(١١)؟

إن الذات موضوع السرد أي الذات المُسرَدَةُ التي تضطلع بدور السارد^(١٢)، ليست ذاتا بالمفهوم الحقيقي للكلمة، بقدر ما هي هوية لغوية تحيل إلى هذه الذات، إنها تنتمي لجملة المعايير والمحددات التي يمكننا من خلالها مقارنة مفهوم الذات دون أن تكونها، فالذات داخل السرد هي أحد محددات الهوية للذات الحقيقية وهي ليست ذاتا مطابقة لتلك الذات بالفعل، إننا نضرب مقولة التطابق ونفني إمكانية اختزال الذات في السرد، فإن كان فهمنا للذات واقعياً غير قابل للتحديد فإنه في السرد يأخذ مسالك جديدة تُعمِّق هذه المتاهة.

في حالة التطابق الصريح: (واسيني الحقيقي = واسيني في الحكاية)، فإن ذات المؤلف وهويته التي ينقلها إلينا سردياً، ليست هويته الفعلية في أرض الواقع، هناك مفارقات في هذه الهوية، فالذات الحقيقية قد تكذب بشأن نفسها عندما تُسرَدُها، فتضيف أحداثاً وتنقص، وتبالغ في بعضها، وتتجاهل أخرى، وهذا ما يسمى إكراهات الكتابة^(١٣)، وعليه فالذات المُسرَدَةُ^(١٤): هي ذات مُفَلَّتَرَّة، مُعَدَّلَّة، ومُتَصَرَّفٌ فيها، ذات تعرضت لتحويرات كثيرة لثَقْدَم إلى القارئ بالشكل الذي يتلقاه بها من خلال السرد، ووفقاً لهذا فإن التطابق باطل؛ فسرد قصة عن الذات^(١٥) يمكن أن يؤدي إلى تغيير تلك الذات أحياناً: "فالجُلوس مع الأصدقاء والإسهاب في السرد عن الذات وتجاربها غالباً ما يجعل الراوي يعيد تكوين نوع شخصه، وبالجُلوس مع معالج (معالج نفسي) وسرد تجارب حياتهم يستطيع هؤلاء المُعَالَجون إدراك من هم ومن يريدوا أن يكونوا، ومن خلال ما يضطلع به السرد من تحويلية في الذات ومسار حياتها، اقترح الكثير أن قصص السيرة الذاتية تفعل أكثر من مجرد وصف الذات الموجودة مسبقاً.

ففي بعض الأحيان، يمكن للرواة أن يغيروا من هم، جزئياً، عن طريق سرد قصص عن أنفسهم" (Wortham, ٢٠٠١).

المفارقة الأخرى التي تجعلنا لا نسلم بمقولة التطابق هي مفارقة الزمان، فالذات ليست قارّة، أو ثابتة، إنها متحركة عبر الزمان والذات التي تترجم نفسها إلى ذات سردية ستتبع مساراً معيناً، فيه غرلة للأحداث، ولا يعطي تصوراً كاملاً عن هذه الذات، إضافة إلى هذا، هناك قضية اختلاف الذات عبر مراحل الحياة، فعندما يحدثنا "واسيني" عن ذاته في مرحلة الطفولة فإن هذه الذات غير تلك الذات في مرحلة الشباب، وغيرها في مرحلة الكهولة. وإذا كان الاختلاف في الذات نفسها (ذات الشخص نفسه)، على امتداد الزمان قائماً في الواقع، فإن تسريد هذه الذات ونقلها إلى اللغة ومحاولة عرضها عبر مراحل زمنية مختلفة سيعمق المفارقة، فأولاً ستتحوّل الذات إلى ذات لغوية غير مطابقة للذات الحقيقية، وقد سبق وتحدثنا عن استحالة المطابقة بينها وبين الذات الحقيقية، ثم إن هذه الذات السردية ستتنقسم إلى ذات في مرحلة الطفولة تختلف عن الذات في مرحلة الشباب، وتختلف عن الذات في مرحلة الكهولة التي بدورها تختلف عن الذاتين السابقتين، وكل هذه الذوات السردية المفترضة تختلف عن الذات المؤلّفة لحظة الكتابة، التي بدورها تختلف عن ذات المؤلف الحقيقية التي تشغل حيزاً في العالم الواقعي، وكل ذات من هذه الذوات السردية تخضع لإكراهات الكتابة الأدبية، واختزالاتها، وتشويهاتها، وأيضاً تخضع لمقاصد المؤلف، وتعديلاته، وتحسيناته، إضافة إلى ظروف أخرى كقصور الذاكرة واعتمادها على ملاءم البياضات.

فمثلاً إذا ما أخذنا ذات "واسيني" الحقيقية وهي تُسَرِّدُ ذاته الطفولية، فإن ذات "واسيني" الطفل ساردة وموضوعاً للسرد ومطابقة مفترضة لذاته الطفولية الحقيقية^(١٦)، تتحول إلى ذات مُسَرَّدَةٌ؛ أي إنها تتحول إلى هوية سردية،/ ضمير أنا/ كينونة مطابقة بالاسم، ومطابقة لجملة من الصفات والأوصاف لشكل مادي ماضوي لم يعد موجوداً لتكون ذاتاً مفترضة تقوم على مطابقة مفترضة/ شخصية تفتقر إلى المقومات المادية وتشغل مُجِئلاً للذات المرجعية الحقيقية، ووفق هذا التحول فإن التطابق المفترض بين ذات "واسيني" الحقيقية، وبين الذات الساردة في تلك اللحظة، وبين الشخصية الرئيسية وهي الطفل "واسيني" يلغى، ومثال ذلك مقارنة «صور الرسام الهولندي الشهير رامبرانت (Rembrandt) التي رسمها لنفسه في أعمار مختلفة – فإن الهوية العينية الثابتة ليست هي التي تشكل هويته الذاتية، بل إنه انتمأؤه إلى شخص قادر على أن يسمى نفسه على أنه ذلك الذي يملك جسده». (ريكور، ٢٠٠٥، صفحة ٢٧٤)، ف «رامبرانت Rembrandt»، في الصور ذات الأعمار المختلفة، ليس هو "رامبرانت Rembrandt" الذي رسم الصورة في زمان متأخر تجاوز فيه تلك الأعمار.

كذلك الأمر بالنسبة إلى السرد، فعندما تضطلع الذات الحقيقية بفعل التذكر، وتسلم للذات الساردة دفعة الحكيم وصياغة الأحداث، فإن الذات الحقيقية تمر بإكراهات الذاكرة والكتابة، فتضيف وتنقص وتعديل أحداثاً وتتجاهل أخرى، بل وتضطلع لنفسها هويات سردية مختلفة «مع مرور الوقت، يؤدي إضافة وطرح ومراجعة

القصص إلى تغيير المخزون. في حالات الانتقالات الناجحة، يُساعد مخزون السرد الذي يتجمع حول قصص جديدة ومستدامة تتعلق بالتغيرات التي يتضمنها الانتقال، الراوي على تمثيل هوية دور جديد.» (Herminia Roxana, ٢٠١٠, p. ١٣٦)، وسينتقل (السارد/ المؤلف/ الشخصية الرئيسية) نتيجة فعل التذكر إلى هوية جديدة هي هوية الطفل، وسيسرد من خلالها لتتابع السرد على لسان واسيني الطفل، لكن منطقيا لا يعقل أن واسيني الطفل يمتلك هذا المنطق السردى الذي نتابعه قراءةً فذات ذلك الطفل هي هوية مصطنعة لحظة الكتابة (أنا الطفل في اللحظة، أو هو الطفل في الذاكرة السارد ≠ الشخصية الساردة ≠ ذات المؤلف الحقيقية لحظة الكتابة).

بالتالي فلا وجود لذات طفل أصلا وإنما هوية جديدة ظهرت لحظة الكتابة لتضطلع بحمل حمل خطاب "واسيني" الطفل، الذات القديمة التي يستحضرها المؤلف، في محاولة منه إيهامنا بأنها الذات القديمة عينها تسرد ما مر به وهو طفل، فعندما يياشر المؤلف -بصفته ساردا- فعل التذكر، فإنه يرسم لنا صورته وهو طفل صغير يسأل والده من وراء المنشفة «أبي سافر في وقت مبكر إلى فرنسا. كان العالم على فوهة بركان جديد، الحرب العالمية الثانية. شرمطيات الحياة كانت قاسية عليه. لا أحتفظ في ذاكرتي إلا بوجهه الطيب وهو يعود من منفاه الاختياري كعامل مهاجر في فرنسا، وهو يغسل وجهي صباحا ثم يضع على رأسي المنشفة الكبيرة وهو يضحك: هل تراني الآن يا واسيني؟» (الأعرج، سيرة المنتهى عشتها كما اشتهتي، ٢٠١٤، صفحة ١٤٣)، وسرعان ما ينتقل من وضع التذكر الذي يغلب عليه السرد، إلى وضع التلبس (تلبس ذات الطفل) نتيجة الحوار الذي يبينه المؤلف بين ذات الطفل وذات والده ليعزز المشهد، حتى أن القارئ يتخيل طفلا مغطى بمنشفة يحاور رجلا: «أسأله من جديد وأنا مستمتع بظلام المنشفة، بحيث أحسه وأراه كما أشتهي، ولا يراني. أتخيله، بينما هو لا يرى إلا طفلا شقيا يلعب لعبة الغميضة: هل تعلمت القراءة و الكتابة هناك؟ يجب وهو لا يخفى ابتسامته التي أحسها ترسم على شفثيه الرقيقتين، والتي تزيد من يقينه: تعلمت. كوراثون ميًا، سيدة طيبة تعمل معي، علمتني. أتساءل ولا أطرح سؤالاً: امرأة تعلم والدي؟ هذا الأمر لا يوجد عندنا.» (الأعرج، سيرة المنتهى عشتها كما اشتهتي، ٢٠١٤، صفحة ١٤٣، ١٤٤)، فيأتي التصور الذي يُكوّنه القارئ عن ذات "واسيني" من خلال سرده، على أنه طفل يحاور والده تلك اللحظة، وهو في حقيقته تصور ناجم عن إيهام السرد، والذاكرة، ولا يمكن أن يكون تعبيرا حقيقيا فعليا، صادرا عن ذات الطفل القابعة في الماضي.

فتلك الذات اندثرت، وما نتلقاه سرديا ما هو إلا هوية مصطنعة عنها، واستعادتها كما هي مستحيل، وبناء هوية مطابقة لها مستحيل أيضا، فالذات الجديدة التي تحاول القيام بهذا محمولة بمحولات معرفية وإيدولوجية تعيق عملية البناء الصافية لأن التصور المتعلق بهذا الطفل مشحون بخطاب الذات البالغة، بل إنه خطاب الذات البالغة لحظة الكتابة مسرّب من هوية الطفل التي تلبستها، فذات "واسيني" الطفل التي يستشعرها القارئ من السرد هي

ذات مفترضة استُحضِرَتْ لحظة الكتابة، عن طريق عملية التذكر ومن ثم تلبس هذه الذات وعرضها مشهديا من خلال الحوار، وكأن تلك الذات حاضرة موجودة في الساعة، وهي التي تسرد لنا بلسان "أنا" الطفل ما كان معها - وهو ما يعتبر ذكريات بالنسبة للأنا المؤلفة-، ليتوهم القارئ بأن الأحداث تنقلها لنا ذات طفل وليست الذات الساردة التي بدأنا معها السرد من الأول-ذات الأعرج البالغة-، وقس هذا على الذوات الأخرى في بقية المراحل...، وعليه فإننا نجد أن فكرة التطابق مستحيلة ولا يمكن لها أن تكون لأننا نتلقى الذات الحقيقية المرجعية على مدار العمل، عبر عديد من الهويات السردية التي تتكلم من ورائها (ذات المؤلف الطفل، ذات المؤلف الشاب، بل وأحيانا ذوات أخرى تختلف كلياً عن ذات المؤلف).

لقد لمسنا حجم المفارقة، وعلمنا استحالة التطابق بين الذوات في حالة الميثاق الصريح (واسيني = واسيني = واسيني/ المؤلف = السارد = الشخصية الرئيسية)، في النموذج المقترح الذي يتوفر على هذا التطابق (عمل سيرة المنتهى)، فما بالك إن انتقلنا إلى الأعمال التي تتضمن تطابقاً ضمناً موحياً، كـ "شرفات بحر الشمال"، الذي سنحزم فيه أن "ياسين" هو "واسيني" عن طريق جملة من الاستقراءات والتحليلات، ولكن هذه المطابقة صالحة ضمن حدود التواضع^(١٧) الذي نحن بصدد الخروج عنه، فهذه الورقة تحاول أن تقف بعيداً عن مقولات الفهم التي نستعين بها جوازاً من أجل تسهيل الإدراك.

فإن كنا ضربنا مقولة التطابق في الميثاق السير ذاتي الصريح، فإن التطابق الضمني في الرواية لن يَسَلَمَ من هذا، فكما خلصنا من قرائتنا "سيرة المنتهى" إلى عدم إمكانية المطابقة بين الذات الحقيقية المرجعية، والذات داخل السرد^(١٨)، على مرجعية العمل ومطابقته مطابقة صريحة خط حياة المؤلف، فكيف سنطابق بين "واسيني" ذاتاً حقيقية مرجعية، وبين شخصية مختلفة عنه لا تطابقه صراحة في عمل مثل "شرفات بحر الشمال"؟ ذات جديدة مبتكرة تحمل آثاراً منه تحيل إلى ذاته الحقيقية دون أن تكونها صراحة؟ إن كانت ذات المؤلف المُسَرَّدَة في التطابق الصريح لا تتطابق مع الذات الحقيقية المرجعية فكيف لذات مُسَرَّدَة مقنعة أو مشوهة أن تحقق هذا التطابق؟

إن هذه الأسئلة أسئلة استنكارية، وهي تحمل أجوبتها معها، إن أنكرنا التطابق في الميثاق السير ذاتي الصريح فنحن نكره في غيره أيضاً، بالتالي فمقولة التطابق مجرد مقولة تواضع عليها كل من المؤلف والقارئ والناقد لخلق نسق فهم مشترك، وهي في جوهرها لا تستقيم إذا ما خرجنا عن نسق التفاهم هذا.

عموماً ما يجب أن نفهمه من الذات التي يصطنعها المؤلف عن ذاته في السرد، سواء كانت خاضعة لمقولة التطابق الكلي الصريح، أو التطابق الكلي الضمني، أو التطابق الجزئي المحدوس، هي أنها لا تجسد ذاته المرجعية كما هي في الحقيقة، ولكنها شكل من أشكال الهوية، وهذه الهوية لا تكونه عينه، لأنها أشبه بالصورة الفوتوغرافية عندما نراها، وعلاقتها بالذات الحقيقية كعلاقة العلامة الأيقونية بالمرجع الحقيقي، إنها شيء منفصل عنه (آخر)، لكنها تتطابق معه -ضمن نسق التفاهم المتواضع عليه-، لتكون معادلاً موضوعياً له، ويُفْتَرَضُ بالقارئ الذي يعقد ميثاق قراءة مع المؤلف قبل قراءة العمل، أن يُسَلَمَ أن هذه الذات هي ذات مطابقة للمؤلف (في حالات السيرة الذاتية،

والمذكرات، والسيرة الذاتية الروائية)، ففهم هذه الذات غير ممكن إلا في حدود نسق التفاهم المشترك، وإلا فإنه إن دققنا في قضية التطابق، ونبذنا ميثاق القراءة المفترض، وخرجنا من حدود نسق التفاهم المشترك، فإننا سنخلص إلى أن تلك الذات، وتلك الهوية في الأعمال هي غير الذات الحقيقية، ولا تعبر عن الهوية الذاتية للمؤلف من منظور سَرْدَنَة المؤلف لذاته، أما من منظورها وفي ورقتنا هذه بالذات فالمؤلف يشكل نوعا من الهوية عن ذاته فالذات لا يمكن استنساخها بعينها.

إن هناك ما يشبه الازدواجية في قضية التأليف عموما، وفي التأليف الأدبي خصوصا، حيث لا يمكن الاعتماد بشكل أساسي على تلك الذات المصطنعة سرديا لفهم الذات الحقيقية، أو جعل تلك الذات السردية (هوية سردية) معيارا نهائيا للفهم العام الخاص بذواتنا، قد يصلح هذا في بعض الحالات، وقد يصلح إذا كانت قراءتنا ضمن حدود نسق التفاهم المشترك المتواضع عليه، لكننا خارج هذا النسق من الاستحالة بما كان أن نعتمد على الذات السردية في فهم الذات المرجعية، أو المطابقة بينها من أجل الفهم^(١٩)، هذه الحالات التي يمكننا فهم الذات من خلالها، ولا يمكن لهذا الفهم بطبيعة الحال أن يتأتى لنا إلا في حدود تعاملنا مع هذه الذات المُسَرَّدَة في نظامها السردية الموجودة داخله، ومن خلال الحبكة التي نستقبلها فيها، ومن خلال الميثاق المتواضع عليه، وإلا فإن الفهم باطل.

ففهم هوية الشخصيات يتأتى لنا من خلال الحبكة، لأن هوية الشخصية السردية بإعتبارها ذاتا معادلة للذات الحقيقية فيما نعالجه هنا، تُفهم عن طريق تحويل عملية صياغة الحبكة (القصة) إليها هي، لتكون الشخصية نفسها صيغت حبكة (قصة)، ف"بول ريكور Paul Ricoeur" يرى أن فهم الذات (الهوية الشخصية الحقيقية)، يكون بالطريقة نفسها التي نفهم بها هوية الشخصيات في القصص (Ogunyemi, ٢٠١٤)، أي أن فهمنا ذات المؤلف (الذات المُسَرَّدَة) يكون من خلال فهم هوية الشخصية السردية المعادلة والمطابقة له، ويشترط حصول الفهم، قيام حبكة (قصة) تكون فيها هذه الشخصية موجودة، بما معناه أن الحبكة (القصة) بمثابة سياق فهم ولا يمكن أن تكتسب الشخصية (حاملة الذات) معنى خارج حدود الحبكة (القصة) «يمكن للقصص التي تدور حول الذات إضفاء طابع التماسك على صخب السيرة الذاتية وانفتاحها. حيث تشكل مثل هذه القصص، أو السرديات المتعلقة بالذات (self-narratives)، "حساب الفرد للعلاقة بين الأحداث ذات الصلة بالذات عبر الزمن". والفكرة هي أن هذه القصص تنظم أحداث حياة المرء بحيث تبدو كمجموعة كاملة ذات معنى» (Mason-Schrock, ١٩٩٦, p. ١٧٧)، في حين يكون ميثاق التطابق هو العتبة التي تؤدي وظيفة المسلمة الابتدائية التي تجعلنا نصدق ونوقن بل ونجزم بالتطابق من أجل اسقاط الفهم المؤتى لنا من النص السردية على الذات الحقيقية المرجعية خارج النص.

ويذهب "ماكأدمز Mc Adams" إلى التأكيد على أن فهم الذات يكون بشكل أفضل من خلال القصص، فالأسلوب السردية في مشاهدة الحياة ضروري لفهم الذات، فإذا أراد شخص ما معرفة شخص آخر، فعليه أن يعرف قصته، لأن قصته تحدد من هو، وإذا كنت أريد أن أعرف نفسي فعلي أن أعرف على قصتي الخاصة وبالتالي، فإن النظر إلى الحياة كسرد يمكن أن يساعد المرء على فهم حياته وأفعاله واكتشاف هويته

بشكل أفضل. (Ogunyemi, ٢٠١٤)، إن ما يذهب إليه هؤلاء الفلاسفة والدارسون صحيح إذا ما انخرطنا ضمن أنساق الفهم التي يتبنونها وقمنا بغض الطرف عن بعض الأمور واعتبرناها مسلمات بديهية، ففهم الذات ممكن إذا تحول إلى سرد.

لكن السرد عموما لا يقدم لنا فهما حقيقيا كاملا متكاملا للذات الحقيقية المرجعية، فالذات التي نفهمها داخله مفارقة للذات الحقيقية الكاتبية، والقضية ليست في أنها مفارقة فقط إذ إنه يمكننا الفهم من خلال ذوات مفارقة ما لا يمكننا فهمه من خلال ذوات سردية مطابقة، القضية في أن هذه الذوات التي نصادفها تعطي لنا على أساس المطابقة في حين أنها غير مطابقة إنها ذوات جديدة، ونحن من خلال مفهوم المطابقة سنطابق بين الذاتين إلى أن نصطدم بالفارق بينهما، وهنا سيقع تشكيك في إمكانية قدرة السرد على تقديم معرفة حقيقية بالذات، فإن كنا نحن بصفتنا ذواتا نستعين في فهمنا لذواتنا بجملة من المعايير من بينها الآخر، فكيف يمكن أن تقدم لنا ذات مصطنعة شُكِّلَتْ وفق اختزالات معينة معرفة حقيقية بالذات؟

إن السرد نظام ترميزي يخضع لقوانين معينة، وله القدرة على إنشاء فهم أجل لكنه فهم في حدود نظامه، ما نحاول الوصول إليه هو أن السرد نظام فهم متوافق عليه هو الآخر، والمعرفة التي يقدمها لنا هي نسبية قد تقدم لنا بعض الملامح عن الذات، وتكشف لنا بعض الجوانب، لكن من المستحيل أن يتمكن من تقديم فهم كامل للذات، ذلك أنه مجرد وسيط لا غير، وفهم الشيء عبر الوسيط لا يكون تاما، بالتالي فإن فهمنا لذواتنا سيبقى قائما على أنساق متواضع عليها، أما فهم الذات فهما متكاملا ينأى عن هذه الأنساق، وهو ما حاولنا أن نجده فهو أمر مستحيل^(٢٠)، في حدود ما اشتغلنا عليه على الأقل، وقد اضطلعت هذه الورقة بإثارة هذا الإشكال، ولا تدعي الإجابة عليه، إن الهدف كما سبق وأوردنا هو إثارة الأسئلة أكثر من تقديم أجوبة.

خاتمة:

١. إن الذات ليست معطى نهائيا يمكن فهمه بطريقة دقيقة ومحددة لذلك فإن فهمها يقع ضمن نطاق المقاربة وحقل التأويل
٢. أكثر ما يمكن أن نفهم به الذات هو ما تعبر به عن نفسها ولعل أبرز ما تترجم به الذات تعابيرها هو السرد، إذ يمكننا من خلاله تمثل الذات وبناء تصورات عنها باعتبارها نظاما لغويا رامزا ووسيطا يسهل التعامل معه في حدود التواضع المشترك.
٣. تترجم الذات نفسها ضمن حركات قصصية وهذا ما يتيح التعامل معها وفهمها ومن خلال هذه الحركات القصصية تسعى الذات لرسم حدودها ونقلها إلى الآخر، يطلق على السرديات التي تتخذ من ذات مؤلفها وحياته موضوعا لها بالسرديات الذاتية (السرد الذاتي) وقد سجلنا اعتراضنا على هذا المصطلح باعتبار أن كل ما تنتجه الذات من سرد حتى وإن كان موضوعه لا يتعلق بذات المؤلف وحياته الخاصة نسميه سردا ذاتيا، فالرواية سرد ذاتي، والمقال سرد ذاتي، والقصة سرد ذاتي... إلخ.

٤. نقترح مصطلحا يتوافق مع المفهوم المقصود فما يرد من مصطلح السرد الذاتي هو السرد التي تسردها الذات عن نفسها، أي أن الذات تكون المؤلفة والساردة وموضوع السرد، وهو ما نجد في الأنواع من قبيل السيرة الذاتية، المذكرات، اليوميات، الروايات السير ذاتية... إلخ، لكن مصطلح السرد الذاتي لا يتوافق مع هذا المفهوم بالتالي فإن المصطلح الأنسب لهذه الأنواع هو "سرد الذات المُسَرَّدَة لذاتها".
٥. إن فهم الذات لا يمكن أن يكون إلا عن طريق نظام معين يُحَسِّدُ فيه هذه الذات نفسها كهوية يتلقاها الآخر، كالنظام السردية مثلا، إن هذا التحسيد الذي تلجأ إليه الذات وترجمتها لنفسها لا تجعل مما أنتجته مطابقا لها بل هو نسخة أو صورة عنها حتى إن كانت توحى بالتطابق فإنها لا تتطابق فعليا مع الذات وقد استطعنا من خلال تحليلنا نموذجين مختلفين من السرد، أن نتوصل إلى استحالة التطابق بين الذات الحقيقية المرجعية وبين الذات السردية التي تتجلى من خلالها، حتى في تلك أشد السرد صلة بالذات استطعنا أن ننفي إمكانية التطابق نتيجة الامتداد الزمني وتحول الذات الحقيقية عبر الزمان، بالتالي فإن ما يقدمه السرد فعليا، نسخ متنوعة تمثل هويات مختلفة عن الذات الحقيقية نتوصل من تجميعها إلى فهم نسبي للذات الكاتبة.
٦. يقع الفهم النسبي للذات في حدود نظام تواضعي مشترك، مؤسس من قِبَل الجماعة لتسهيل الفهم، فمثلا في السرد وقع التواضع على ميثاق قرائي يربط بين المؤلف والقارئ، قائم على التسليم في حالة سرود الذات المُسَرَّدَة لذاتها بقضية التطابق بين المؤلف والسارد والشخصية الرئيسية وهذا التواضع المشترك يشكل عتبة فهم أولى، لكن كما أشرنا فإن التطابق ما هو إلا مقولة متواضع عليها من أجل الفهم وهي صالحة ضمن حدود المشترك التواضعي فقط أما خارجه فهي غير صالحة ولا يمكن القول بما لأن الذات الحقيقية المرجعية (الخارج نصية) من الإستحالة بما كان أن تتطابق مع الذات السردية (هويتها السردية أو الذات المصطنعة عنها)، بالتالي فإن نظرة خارج الصندوق تحيلنا إلى مغالطة هذه المقولة وإلى عجزها عن تقاسم فهم دقيق للذات يقودنا إلى مراجعة مقولاتنا وأنظمة الفهم المتبعة.

الهوامش:

- (١)-الذات الحقيقية المرجعية هي الذات خارج نصية المؤلفة للعمل.
- (٢)-الذات المُسَرَّدَة هي الذات داخل نصية التي تشكل هوية سردية لصاحبها.
- (٣)-الذات اللغوية أو السردية التي نتعامل معها في حدود اللغة.
- (٤)-إننا نفهم المؤلف هنا على أنه الذات المُتَبَجِّهَة للسرد.
- (٥)-أي إن الذات موضوع السرد تمثل هوية سردية للذات المرجعية.
- (٦)-اعتبرنا الذات السردية المطابقة للذات الحقيقية المرجعية مع التحفظ على قضية التطابق حدا من حدود الهوية لأنه نستطيع من خلالها فهم الذات المنتجة للسرد وتمثلها فمثلا إذا ما قرأنا سيرة ذاتية لأحد المؤلفين فإنه من خلال سرده عن نفسه نستطيع فهمه موجودا

بشريا ينقل خبراته وتجاربته عن طريق اللغة لكن ما نتلقاه من خلال السرد لا يمكن أن يكون صورة كاملة أو فهما منتهيا لهذه الذات وإنما محددا من محددات كثيرة.

(٧)- أي إنه لا يستجيب للميثاق الذي أقرّه "فيليب لوجون **philippe Lejeune**" بما معناه أن: المؤلف ≠ السارد ≠ الشخصية الرئيسية.

(٨)- أي أنه يستجيب لميثاق "فيليب لوجون **philippe Lejeune**" حيث: المؤلف = السارد = الشخصية الرئيسية.

(٩)- الذات الساردة في قصة "السعيد بوطاجين" تتجلى في الراوي العليم.

(١٠)- نقصد بالذات المُسَرَّدَةُ الهوية السردية أو الذات داخل نصية الحاملة لاسم المؤلف الحقيقي وصفاته.

(١١)- أي الذات خارج نصية التي تترجم نفسها من خلال السرد.

(١٢)- كشخصية ياسين في شرفات بحر الشمال مثلا، أو شخصية "واسيني الأعرج" في عمل "سيرة المنتهى" التي هي ذات لغوية مستنسخة عن ذات حقيقية تسرد لنا عنها.

(١٣)- ناجمة عن فعل ترجمة الذات أو الواقع إلى عناصر لغوية، فأنشاء هذه العملية تحصل ثغرات تسعى الذات لرأبها، أو تقابل الذات (خصوصا في أصناف الكتابة عن الحياة الشخصية)، ذكريات وأحداث معينة لا ترغب في كشفها فهي تسقطها أو تشوهها وتتصرف فيها...

(١٤)- تعتبر الذات المُسَرَّدَةُ في هذا الضرب من السرد ذاتا مطابقة افتراضا للذات الحقيقية المرجعية وهو ما يشكّل هوية سردية لها.

(١٥)- نقصد بسرد قصة عن الذات في هذا الموضع، سرد قصة عن الذات الحقيقية المرجعية، الذي يقرّ بالتطابق ويشترطه، صراحة أو تضمينا، ويتجسد في السيرة الذاتية وما يقترّب منها من أنواع كاليوميات والمذكرات، وكذلك الروايات السير ذاتية.

(١٦)- يستحيل أن تتطابق ذات "واسيني" الطفل في السرد مع ذاته الحقيقية كطفل نتيجة الفارق الزماني الفاصل بين الذاتين لأنه

يكتب عن ذاته كطفل بمنطق رجل جاوز الستين عاما، فأى مطابقة بين ذات طفل وبين ذات رجل جاوز الستين؟

(١٧)- شخصية "ياسين" مثلا في "شرفات بحر الشمال" إذا تناولناها في نسق الفهم المشترك (الميثاق والتطابق) سنجد أنها تمثل ذات "واسيني"، لكن إذا تعاملنا معها خارج حدود هذا النسق فإن شخصية "ياسين" من الاستحالة أن تتطابق مع ذات واسيني المرجعية ولكنها هوية حاملة لشيء من ذاته تتشابه معه وتوحي رمزيا إليه دون أن تكونه، مسخرة لتعرض شيئا من حياته وتوجهاته (معارضة الإسلام المتطرف مع التحفظ على مصطلح الإسلام المتطرف).

(١٨)- الذات داخل السرد هي الهوية داخل نصية للذات الحقيقية خارج نصية.

(١٩)- مثلا "روسو **Jean-Jacques Rousseau**" في الاعترافات، غيره في الحياة الحقيقية، فالتصور الذي كان في أذهان

المجتمع عنه في حياته الحقيقية، هو ذلك الفيلسوف، والمصلح الاجتماعي، والمربي الشهير، لكن بعد الاعترافات ظهر أن "روسو **Jean-Jacques Rousseau**" شخص آخر غير ما كان يراه به الآخرون، فمن كان يُنظرُ للمجتمع والإنسانية وكذلك لتربية الأطفال (كتاب إميل، أو التربية) لم يتزوج عشيقته ووضع أطفاله منها في دار أيتام، ومن كان يؤسس للإصلاح الاجتماعي والأخلاقي، ظهر في الاعترافات وهو يمارس أفعالا لا أخلاقية تتناقض مع مؤلفاته الأولى التي كتبها، ومع فلسفته، وكذا تتناقض مع ذاته التي يفهمها به المجتمع، كيف نفهم ذات "روسو **Jean-Jacques Rousseau**" إذن؟، هل نفهمها من خلال "روسو **Jean-Jacques Rousseau**" الفيلسوف، أم من خلال "روسو **Jean-Jacques Rousseau**" الإنسان؟ ربما يجب علينا التوفيق بين الجانبين لفهم أفضل، وإننا بعرضنا هذا نبين مدى قصور السرد في تعريفنا بالذات، وأن الذات المصطنعة سرديا ذات مختزلة لا يمكنها أن تعطينا معرفة كاملة.

(٢٠)- خروجنا عن نسق يجعلنا ندخل في نسق آخر ونتمحور حول مقولة أخرى سرعان ما نكتشف قصورها ونحاول حرقها والبحث عن بديل لها.

قائمة المصادر والمراجع:

المصادر:

١. ابن بطوطة. (٢٠٠٦م). تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار. مر: درويش الجويدي. بيروت، لبنان: شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع.
٢. احسان عباس. (٢٠٠٦م) غربة الراعي سيرة ذاتية. ط ٠١. عمان، الأردن: دار الشروق للنشر والتوزيع.
٣. باولو كويلو. (٢٠٠٨م). الخيميائي. تر: جواد صيداوي. ط ١٥. بيروت، لبنان: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر.
٤. جورج أورويل. (٢٠٠٦). ١٩٨٤، تر: أنور الشامي. ط ٠١. بيروت، لبنان: المركز الثقافي العربي.
٥. مزرعة الحيوان. (٢٠١٤م)، تر: محمود عبد الغني. ط ٠٢. بيروت، لبنان: المركز الثقافي العربي
٦. السعيد بوطاجين. (٢٠١٨م). نقطة إلى الجحيم. (د.ط.). الجزائر: الجزائر تقرأ.
٧. ليف تولسوي. (٢٠٢٠م). اليوميات، الجزء الأول ١٨٤٧-١٨٥٧. تر: يوسف نبيل. ط ٠١. القاهرة، مصر: آفاق للنشر والتوزيع.
٨. واسيني الأعرج. (٢٠٠٨م). ذاكرة الماء محنة الجنون العاري. ط ٠٤. دمشق، سورية: ورد للطباعة والنشر والتوزيع.
٩. شرفات بحر الشمال. (د.ت.). (د.ط.)، بيروت، لبنان: دار الآداب.
١٠. سيرة المنتهى عشتها كما اشتتهني. (٢٠١٤م). ط ٠٥. الجزائر: دار بغداد.

المراجع:

١١. بول ريكور. (٢٠٠٥م). الذات عينها كآخر. تر وتق وتع: جورج زيناقي. ط ٠١. بيروت، لبنان: منظمة الترجمة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية.
١٢. شعيب مرواني، رشيد رايس. (٢٠٢٣/٠٥/٠٥م). تسريد الذات وذاتية السرد في رواية "شرفات بحر الشمال" لـ"واسيني الأعرج". سيدي بلعباس، الجزائر: مجلة آفاق فكرية، مج ١١، ع ٠١، جامعة جيلالي اليابس.
١٣. فيليب لوجون. (١٩٩٤م). السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ الأدبي. تر وتق: عمر حلي. ط ٠١. بيروت، لبنان: المركز الثقافي العربي.

١٤. Douglas Mason-Schrock. (Sep, ١٩٩٦). Transsexuals' Narrative Construction of the "True Self", Social Psychology Quarterly. Vol. ٥٩, No. ٣, Special Issue: Gender and Social Interaction.

-
١٥. Herminia Ibarra and Roxana Barbulescu. (Jan., ٢٠١٠). Identity as Narrative: Prevalence, Effectiveness, and Consequences of Narrative Identity Work in Macro Work Role Transitions. Published by: Academy of Management, The Academy of Management Review. Vol. ٣٥, No ١.
 ١٦. Omowumi Ogunyemi. (٢٠١٤). Self Narrative. Perspective of, Interdisciplinary Encyclopedia of Religion and Science ISSN: ٢٠٣٧-٢٣٢٩ and the author. INTERS – Interdisciplinary Encyclopedia of Religion and Science, edited by G. Tanzella-Nitti, I. Colagé and A. Strumia.
 ١٧. Stanton Wortham . Narrating the Self, Stanton Wortham University of Pennsylvania, stanton.wortham@bc.edu. GSE Publications, Reprinted by permission of the Publisher. From Stanton Wortham, Narratives in Action: A Strategy for Research and Analysis, New York: Teachers College Press, ٢٠٠١ by Teachers College, Columbia University.